مشكلة الكواليا: الوعي والتفرد الإدراكي

The Problem of Qualia: Consciousness and Perceptual Uniqueness

دكتور/ صلاح عثمان (أستاذ المنطق وفلسفة العلم – رئيس قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة المنوفية – جمهورية مصر العربية)

Salah Osman

(Menoufia University, Egypt)

salah.mohamed@art.menofia.edu.eg

DOI: 10.13140/RG.2.2.20190.72005

مقال منشور في جزأين بموقع أكاديمية بالعقل نبدأ بتاريخ: ١١، ١٨ فبراير ٢٠٢٢

With Mind We Start Academy, 2022, February 11, 18.

هل بإمكانك أن تصف لي تجربة إحساسك بالألم، أو بطعم القهوة، أو برائحة الوردة، أو حتى رؤيتك للونٍ معين؟ الإجابة بالطبع هي النفي، وإن بدت غير ذلك للوهلة الأولى، والسبب ببساطة أن لكل منا تجربته الفريدة في الإدراك الحسي، حتى وإن كانت هناك عوامل مادية مشتركة. قد يتألم أحدنا بقوة من وخزة الإبرة، وقد يكون الألم بسيطًا أو منعدمًا لدى آخر؛ وقد يُقبل أحدنا على طعام بعينه في الوقت الذي ينفر منه آخر، وقد يشعر أحدنا بالبهجة والانتعاش حين يشم وردة بعينها، أو يرى لونًا بعينه، في حين لا يُمثل ذلك الشعور الأمر ذاته لأخر، ... إلخ، لكن أيًا منا لن يستطيع في النهاية أن يُخبر الآخر بطبيعة أو درجة الإحساس الذي يُكابده! هذا ما يُعرف فلسفيًا باسم مشكلة «الكواليا»، وهي إحدى أصعب المشكلات في الفلسفة والعلم على حدٍ سواء، لأنه إن كان من المستحيل نقل «الكواليا» لُغويًا، فمن المستحيل أيضًا الاستدلال بها أو عليها في حُجة منطقية، أو معالجتها بالوسائل المادية!

«الكواليا» مصطلح حديث نسبيًا في الأدبيات الفلسفية لمشكلة العقل والجسد، وهو اسم جمع لاتيني (مفرده Quale) يُستخدم فلسفيًا للإشارة إلى مجموعة الخواص العقلية للخبرات الحسية؛ أعني تلك الخواص الكلية (كالحمرة Redness) حين يتم إدراكها ذهنيًا بمعزل عن أي مصدر قد تكون له تلك الخواص في الواقع الحسي الفيزيائي. بعبارة أخرى، نستطيع القول إن «الكواليا» هي الطريقة التي تشعر بها عند وجود حالات عقلية مثل الألم، ورؤية اللون الأحمر، وشم رائحة

الوردة، وغيرها. أو هي تلك الصور النوعية لخبراتنا الذاتية بالعالم: الصور الباطنية، الاستبطانية، غير الفيزيائية، وغير القصدية، المسؤولة عن شعور المرء حين يرى شيئًا ما، أو يسمع صوتًا ما، أو يشم رائحة ما، ... إلخ؛ وهي صور يمكن أن تختلف من شخص إلى آخر بغض النظر عن العمليات الفيزيائية والكيميائية المصاحبة للشعور أو الوعي داخل الجسد الإنساني، والتي يشترك فيها البشر جميعًا في ظروف الأحوال العادية.

وكان الفيلسوف والمنطقي الأمريكي «كلارنس إرفنج لويس» Clarence I. Lewis (١٨٨٣ – ١٩٦٤) هو أول من استخدم مصطلح «الكوالميا» بمعناه الحديث المقبول عمومًا، وذلك في كتاب له بعنوان «العقل ونظام العالم»، نُشر سنة ١٩٢٩، حيث وصف فيه «الكوالميا» بأنها «تلك السمات الكيفية التي يمكن التعرف عليه من خلال المُعطى، والتي يُمكن أن تتكرر بشكلٍ مختلف في تجارب مختلفة». وفي الربع الأخير من القرن العشرين، وضع الفيلسوف والرياضي الأسترالي «فرانك كاميرون جاكسون» Frank C. Jackson (١٩٤٣– ١٩٩٩) تعريفًا أكثر دقة للكوالميا، واصفًا إياها بأنها «صفاتٌ معينة للإحساسات الجسدية، وكذلك لخبرات الإدراك الحسي، تلك التي نعجز عن نقلها إلى الآخرين بأي مقدار من المعلومات الفيزيائية الخالصة». ولعله يعني بذلك عدم قدرتنا على الإفصاح عن تلك الصفات باستخدام اللغة.

وعلى نحوٍ تمثيلي، يمكن تعريف «الكوالميا» بأنها «مشاعر نيئة» Raw feels؛ فالشعور النيئ هو بمثابة «إدراك حسي في ذاته ولذاته»، مأخوذًا برمته بمعزلٍ عن أي تأثير له قد يُحدثه على السلوك والاستعداد السلوكي. في حين أن «الشعور المطبوخ» Cooked feel – إن صح التعبير– هو ذلك الإدراك الحسي حين يوجد من خلال تأثيراته. على سبيل المثال، يُعد تصور طعم القهوة شعورًا خامًا نيئًا لا يوصف، في حين أن تجربة الدفء أو المرارة الناتجة عن طعم القهوة وغيرها من الإدراكات الحسية المشتركة بين الناس إزاء طعوم أخرى ستكون إحساسًا مطبوخًا.

على أن أفضل تعريف للكوالميا هو ذلك الذي قدمه الفيلسوف الأمريكي «دانييل كليمنت دينيت» Daniel C. Dennett (من مواليد ١٩٤٢) سنة ١٩٨٨، حيث حددّ أربع خواص أساسية يجب أن توصف بها «الكوالميا» عمومًا، وهي.

١. غير قابلة للوصف Ineffable؛ بمعنى أنها لا يمكن أن تكون محل تبادل إخباري أو تواصل لغوي، ولا يمكن إدراكها إلا من خلال الخبرة المباشرة.
٢. جوهرية Intrinsic؛ بمعنى أنها خواص ليست علائقية، أي خواص لا تتغير اعتمادًا على علاقة الخبرة بأشياء أخرى.
٣. خاصة Private؛ أي أن كل مقارنات الكوالميا بين الأشخاص مستحيلة نسقيًا.
٤. يتم إدراكها مباشرة أو على نحوٍ فوري بالوعي.

من المهم أن نلاحظ مرة أخرى – بصدد الخواص التي ذكرناها للكواليا– أنها ليست لها حالة الخواص القابلة الملاحظة؛ أعني تلك التي نستطيع ملاحظتها والتعبير عنها لغويًا، ذلك أن تصور الكواليا إنما يعتمد أولاً وقبل كل شيء على تعريفه. كما أن وجود الكواليا إنما يستند على وجود الخواص التي تناسب هذا التعريف. وهكذا، فإذا اكتشفنا مثلاً خاصية كتلك التي نعبر عنها بقولنا «ما يكون مثيلاً بامتلاك خبرة معينة»، لكن هذه الخاصية كانت في الواقع معروفة لآخرين، فإنها لن تكون مما يندرج في نطاق الكواليا. وعلى هذا، فإذا كانت الكواليا توجد بالفعل، فإن الشخص الرائي – المزود بجهاز إبصاري طبيعي – والذي يستطيع مثلاً أن يرى اللون الأحمر، لا ولن يتمكن من وصف خبرته بمثل هذا الإدراك الحسي على حقيقتها لأي شخص آخر، إنما يستطيع فقط أن يضع نموذجًا تقريبيًا لخبرته، كأن يقول مثلاً: «الأحمر يبدو ساخنًا»، أو أن يقدم وصفًا للشروط التي تحدث الخبرة بمقتضاها، كأن يسترسل قائلاً: «إنه اللون الذي تراه حين يضرب عينيك مباشرة ضوءٌ له كذا وكذا من الطول الموجي».

يعني ذلك أن اللون ككيف عقلي، أو كخاصية من تلك الخواص التي نطلق عليها اسم «الكواليا»، إنما هو خاصية فريدة ومباشرة، تُعلن عن نفسها فقط داخل العقل الواعي، وهي بالضرورة ممتنعة التعريف بأية وسيلة فيزيائية.

ولو أردنا تعداد الحالات العقلية التي تدخل في نطاق الكواليا، لوجدنا أنفسنا أمام قائمة طويلة من الإحساسات، والمشاعر، والخبرات، والرغبات، بل والأفكار الخالصة. ومع أن هذه الحالات ما زالت موضع خلاف وجدل بين الفلاسفة، إلا أننا يمكن أن نضمنها مبدئيًا في القائمة التالية:

١. الخبرات الإدراكية الحسية: كتلك المتضمنة مثلاً في رؤية اللون الأخضر، وسماع صوت الجرس، وتذوق طعم القهوة، وشمّ نسيم البحر، وتحسس قطعة من الفرو.
٢. الإحساسات الجسدية: كالشعور بوخز الألم، والشعور بالحكة، والشعور بالجوع، والشعور بالحر أو البرد، وكذلك خبرة ممارسة الجنس أو الجري أو بذل المجهود.
٣. ردود الأفعال، والانفعالات، أو العواطف، كالشعور بالفرح، الخوف، الحب، الحزن، الحسد، والندم.
٤. الأمزجة، مثل الشعور بالعظمة، الخضوع، السكينة، الفظاظة، التوتر، والتعاسة.

ويضيف البعض إلى هذه القائمة خبرة الفهم لجملة ما، وخبرة التفكير المفاجئ في شيء ما، والتذكر اللحظي، وحديث النفس الداخلي، فضلاً عن الرغبات الفردية المختلفة، كرغبتي في أن أقرأ هذا الكتاب، أو كرغبتي في أن أقضي عطلة نهاية الأسبوع في الإسكندرية، وهكذا.

أخيرًا تنبغي الإشارة إلى أن مصطلح «الكواليا» ما زال من أكثر المصطلحات إشكالية في الفكر الفلسفي والعلمي المعاصر، لاسيما فيما يتعلق بمدى كون «الكواليا» موجودة أو غير

موجودة، قصـدية أو غير قصـدية، متفردة في ذاتها أو مرتبطة بحوادث المخ والجهاز العصـبي. وهكذا، فعلى حين يربط بعض الفلاســفة– كما أشــرنا – بين الكواليا والمعطيات الفســيولوجية والسيكولوجية للجسد الحي من خلال مقولة التأثير والتأثر، نجد البعض الآخر وقد رفض وجودها بالمرة، مُحيلاً كافة مظاهر الوعي الإنسـاني إلى عمليات مادية صـرفة، بينما نجد البعض الثالث وقد أقام للكواليا عالمها الخاص والمفارق لعالم الوجود المدرك حسـيًا، ومتخذًا منها نقطة انطلاق قوية لدحض نزعة الردّ الفيزيائي: ردّ العقلي إلى الســلوكي والســلوكي إلى البيولوجي والبيولوجي إلى الفيزيائي.

هذا بالإضــافة إلى ما يثيره تصــور الكواليا من تســاؤلات تتســم إجاباتها دومًا بالغمام، وهي تساؤلات تنقلنا من البحث في ماهية اللون مثلاً إلى البحث في أنطولوجيا الحالات العقلية برمتها، ومن البحث في الإدراك اللوني إلى البحث في طبيعة الوعي، وفي مشــكلة العلاقة بين العقل والجســد بصــفة عامة؛ فعلى ســبيل المثال، هل ثمة وجود لخبرات ذاتية يكابدها المرء دون أن يتمكن من الإفصـاح عن طبيعتها؟ وهل يعني ذلك وجود عوالم عقلية ذاتية مختلفة يصـعب الربط بينها على خلفية الأســاس المادي للجســد؟ وما هي ماهية التخم الفاصــل بين العقل كوعاء لتلك الخبرات، والمخ كحامل لميكانيزمات حدوثها؟ وهل ثمة تمثيل ممكن بين العقل والمخ من جهة، وعتاد الحاسب الآلي Hardware وبرمجياته Software من جهة أخرى؟

لا شــك أن الإجابة عن هذه التســاؤلات، أو بعبارة أدق تناولها فلســفيًا، يتجاوز نطاق هذا المقال، وإن كانت ثمة متعة للاسترسال في تأملها على درب التأمل في الإبداع الإلهي في الخلق: «صُنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبيرٌ بما تفعلون» (النمل: ٨٨).

- **توثيق المقال بنظام APA:**

عثمان، صلاح (١١، ١٨ فبراير ٢٠٢٢). «مشكلة الكواليا: الوعي والتفرد الإدراكي». أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة. تم الاسترداد بتاريخ ٢ أكتوبر ٢٠٢٢ من:

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/مشكلة-الكواليا-الوعي-والتفرد-الإدراك/

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/مشكلة-الكواليا-الوعي-والتفرد-الإدراك-٢/

APA Citation:

Osman, S. (عـثـمـان، ص) (2022, February 11). The Problem of Qualia: Consciousness and Perceptual Uniqueness (مشــكلة الكواليا: الوعي والتفرد الإدراكي). Retrieved October 2, 2022, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/مشكلة-الكواليا-الوعي-والتفرد-الإدراك/

Osman, S. (عـثـمـان، ص) (2021, February 18). The Problem of Qualia: Consciousness and Perceptual Uniqueness (مشــكلة الكواليا: الوعي والتفرد الإدراكي). Retrieved October 2, 2022, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/مشكلة-الكواليا-الوعي-والتفرد-الإدراك-٢/

***